الشخصية في رواية "عباد الشمس" لسحر خليفة دراسة من وجهة نظر نسويّة

The Character in the " Sunflowe novel ofSahar Khalifa " a study from a feminist point of view

فاطمة قيدوش
طالبة دكتوراه
إشراف: - د.حنان بومالي
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة(الجزائر)
البريد الالكتروني:Fatima.guidouche@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2018/11/12 تاريخ القبول:2020/05/07 تاريخ النشر: 2020/06/17

ملخص:

تعد الشخصية مكوّنا من مكوّنات العمل الحكائي ،لكونها العنصر الفعال الذي يربط الأحداث ونظرا لهذه الأهمية أُثيرت حولها النقاشات ، وحاول النقاد والدارسون إعطاء مفهوما محددا لها , كلٌ حسب تخصصه العلمي وتوجهه الفكري , فظهرت بذلك العديد من الآراء عند المنظرين التقليديين والحديثين ,لكنها ظلت معتمدة عند الروائيين على أنها الركيزة الهامة في الرواية كما أخذت أهمية كبيرة في الكتابة النسويّة وكانت وسيلة لنقل الواقع بكل تناقضاته من وجهة نظر نسويّة , كما تغير النظر إلى هذه الشخصية ووظيفتها داخل المتن الحكائي وهذا ما ميز السرد النسوّي .

الكلمات المفتاحية :النسويّة ;الرواية ;الشخصية ; سحر خليفة ;السرد.

Abstract

Being the active element which links the events, the character is one of the components of the narrative work. Given this importance, the character was subject to discussions, and critics and scholars tried to give it a specific definition in accordance with their scientific specializations and intellectual orientations. The result was the emergence of many views of traditional and modern theorists. However, the novelists considered the character as the cornerstone of the novel. Moreover, it gained great importance in women's writings and was a means of conveying reality with all its contradictions from women's points of view. In addition, the way the character was viewed and its function changed inside the narrative text; something which characterized women's narration.

***Key words**: Women's; novel; character ;Sahar Khalifa; narration.*

1. مقدمة:

اهتمت الدراسات المختلفة بدراسة الشخصية الروائية لكونها مُكونا أساسيا من مكوّنات الخطاب الروائي " وركيزة هامة تضمن حركية النظام العلائقي داخله، وقد تعددت الكتابات حولها ,وذهب النقاد مذاهب متباينة بخصوص بنيتها وفعاليتها في الخطاب السردي "[1] كلٌ حسب تخصصه ومفهومه و منطلقه العلمي والإيديولوجي زيادة على ثقافته ,وهذا الاختلاف خلق آراء متضاربة حول اعطاء مفهوم محدد و شامل تنطوي تحته كل الرؤى ,وهذا البحث يكشف عن صورة الشخصية في الكتابة النسويّة من خلال تسليط الضوء على شخصيات رواية "عباد الشمس " للروائية الفلسطينية سحر خليفة ومن هذا جاءت

بعض الأسئلة منها : ما مفهوم الشخصية ؟ وما هي خصوصيتها في الكتابة النسوية ؟ وكيف نظرت سحر خليفة لشخصياتها ,وكل ذلك وفق وجهة نظر نسوية .

2 .مفهوم الشخصية:

بدأ الاهتمام بدراسة الشخصية منذ أرسطو و إن كان اهتمامه بها هامشيا معتنيا أكثر بالحدث أو الفعل الذي تؤديه " فالأحداث هي المتحكمة في رسم صورة الشخصية و إعطائها أبعادها الضرورية والمحتملة ، وتصبح المأساة لا تحاكي عملا من أجل أن تصور الشخصية ولكنها بمحاكاتها للعمل تتضمن محاكاة الشخصية من حيث صفاتها الأخلاقية و ما تعبر عنه من حقائق " [2] فهذه الشخصية مرتبطة ارتباطا تاما بالحدث ,وقد لازمها هذا التصور عند المنظرين ا لكلاسيكيين الذين يرون الشخصية مجرد اسم للقائم بالفعل .

وفي القرن التاسع عشر أولت الدراسات النقدية مكانة أكثر للشخصية حيث أصبح لها وجود مستقل عن الحدث والأكثر من ذلك أعطوها أهمية كبرى من خلال عناصر السرد الأخرى التي أصبحت مجرد وسيلة تضيء وتبرز أكثر مكانتها ، فقد تعامل معها النقاد " كما لو كانت كائنا حيّا له وجود فيزيقي ، وتوصف ملامحها ، وقامتها ، وصوتها ، وملابسها ، وسحنتها ، وسنها ، وأهواؤها ، وهواجسها وأمالها وآلامها وسعادتها وشقاوتها ...ويبدو أن العناية الفائقة لرسم الشخصية أو بنائها في العمل الروائي كان له ارتباط بهيمنة النزعة التاريخية والاجتماعية من جهة ، وهيمنة الإيديولوجية السياسية من جهة أخرى "[3] ، واكتسبت هذه الأهمية لأن الروائي راهن عليها ومنحها السلطة الكاملة في تجسيد الأحداث و تصوير الواقع الاجتماعي بكل تناقضاته.

لكن في ا لقرن العشرين ومع الاتجاه البنيوي تقلصت تلك الأهمية وأصبح يُتعامل معها على أنها علامة مكونة من دالّ ومدلول ,وأن أول المحاولات التي حدّت من مفهوم الشخصية التقليدية هو ما قام به فلاديمير بروب V- propp ، من خلال كتابه "مورفولوجيا الحكاية والذي أدلى فيه بقوله : " إن ما هو مهم في دراسة الحكاية هو التساؤل عما تقوم به الشخصيات ، أما من فعل هذا الشيء أو ذاك ، وكيف فعله فهي أسئلة لا يمكن طرحها إلا باعتبارها توابع لا غير " [4] ، فقد اهتم بالوظائف (الأفعال) التي تقوم بها الشخصيات متجاوزا الشخصية في حد ذاتها و من خلال دراسته هذه أدرك أن الأسماء والصفات تتغير في حين تبقى الوظائف ثابتة .

أما جوليان ألجيرداس غريماس AJ. Greimas فقد بنى نظريته ورؤيته للشخصية على ما توصل إليه فلادمير بروب من أبحاث ومعه أصبحت للشخصية دور بسيط في الحكيّ بصرف النظر عن الفاعل .

في حين انطلق فيليب هامون Filip Hamon من أرضية لسانية معتبرا الشخصية علامة يجري عليها ما يجري على العلامة اللسانية " إنه دليل فارغ ، أي بياض دلالي لا قيمة له إلاّ من خلال انتظامه داخل نسق محدد

إنها كائنات من ورق على حد تعبير بارت "[5] فالشخصية في نظره تشبه العلامة اللسانية ولم تعد ذاتا تحتفي بسِمات جسمانية ونفسية واكتفوا بكونها مجرد علامة لغوية و فتح المجال أمام القارئ ليكون له الدور الفعال لملأ الفراغ كما يسهم في بنائه تدريجيا .

لقد تباينت آراء التقليديين والحداثيين حول مفهوم الشخصية , لتنظر إليها الروائية"سحر خليفة " من زاوية مغايرة ,حيث اهتمت بالشخصيات ومنحتها سلطة فعل الحدث لما أضفت عليها من صفات خارجية كما كشفت عن دواخلها من خلا ل ما أثارته من حوار داخلي , ومن خلا ل تحركها داخل النص , ومن سلوكها وما تحمله من أفكار تحقيقا لرغبتها في إبراز أفكار معينة تسعى اليها إلى حد تماهت مع بعض الشخصيات وكانت الوجه الآخر لها في النص.

إن الروائية تتجاوز في عملها السردي " نظرة رولان بارت للشخصيات ، وأنها كائنات من ورق بل تنظر إلى الشخصية نظرة النسويات و ترى بأن الشخصية إيديولوجيا ، ونسق ومرجعية ، ومن ثمة يتشكل عبرها صوت نسوي يحتج ويطلب التغيير ، و تمثل ذلك بوضوح في كامل أعمالها وتنوع في الحيل التي تقدم فيها شخصياتها " [6], فقد تجاوزت تصنيفات بروب وغريماس وغيرهم و " رسمت شخصياتها من منطلق مرجعيتها وذاكرتها كأنثى وكامرأة من إيديولوجية كونية تتماس بين قيمتين متصارعتين متكاملتين هي الذكورة و الأنوثة" [7] وحاولت اعطاء وجهة نظر مغايرة عن الشخصية وذلك عن طريق الكتابة والتي بواسطتها " امتلكت قوة التعبير... ، كما قدمت رؤية للرجل في الحياة والكون ، رؤية مشبعة بالتوق للحرية الكاملة والثقة بالمرأة وتصرفاتها وبناء عالمها الاجتماعي المتعادل مع الرجل ...ساعية من خلال ذلك إنهاء سطوة تاريخ مديد من الوصاية والأبوية والسلطوية "[8], من خلال الإعلاء من شأن حق المرأة في القضايا الخاصة بل وتعمقت رؤيتها حينما عبرت عن القضايا الأكثر شمولية وربطت حرية المرأة بحرية أوسع وأشمل هي حرية المجتمع من خلال معاينة الواقع ودراسته وتحليله ومعرفة كوامن الضعف فيه , لتحريره من النظرة الأحادية الجانب لتصبح المرأة ذاتا فاعلة ومؤثرة ومشاركة في صنع قراراته .

لقد كتبت سحر خليفة عن المرأة الفلسطينية والتي شأنها شأن المرأة العربية تعيش " في مجتمع ذكوري سلطوي ، ما جعله يكون عليها أكثر ضيقا من الرجل ومضايقة داخل الواقع العام "[9] و عبرت في كتابتها عن نفسها وعن الآخر "وأنجزت بذلك شخصية نسويّة تحاول أن تكون حرة قوية , مقابل شخصية ذكورية مليئة بالسلبيات والتناقضات لذلك يجد المتأمل لشخصيات الذكور في الرواية النسوية مجموعة من الصّور أبرزها : الأب القاسي ...والمثقف الانتهازي...والرقيب السلطوي والرقيب الذكوري الساكن في نفس المرأة "[10] وغيرها من الصور التي حملها السرد النسويّ, وعلى ضوء هذه الرؤية تظهر هذه الشخصيات بما تحمله من أفكار إيديولوجية في مجتمع فلسطيني له خصوصيته ، كما للمرأة علاقة مغايرة بالآخر بكل تمظهراته .

1.2الشخصيات الرئيسية (النسائية) :

وهي المحور الرئيس الذي تدور حوله أحداث الرواية ، وقد أوكلت لها مهمة دفع السرد إلى الأمام , ولها الدور الأكبر في تطور الحدث ، وتجلى هذا من خلال ثلاث نساء بطلات هن (رفيف و سعدية وخضرة) شخصيات بأبعاد انسانية اكتسبت طبائعها من عمق المجتمع الفلسطيني بما يميزها من صبر وقوة وتحدي في مجابهة الواقع المفروض نتيجة ظروف استثنائية تعيشها على المستويين الخاص و العام حيث من جهة تُظهر رغبتها في الحياة ومقاومة الموت زيادة على الرغبة في إثبات الذات أمام الآخر (المحتل) الذي يحاول طمس الشخصية الفلسطينية فهو صراع على عدة جبهات وفي هذا سعت الروائية الى تحرير هذه الشخصيات أولا من العادات والتقاليد السلبية ثم الدفع بها إلى المطالبة بحقوقها الخاصة والمساواة مع الرجل في القضايا الاجتماعية ,و بناء على هذا التحرر تسعى إلى القضايا المحورية لتتجاوز نمطية الصورة التقليدية التي رسمها بها السرد الذكوري لعهود خلت ,حيث ظهرت بصور الضعف والاستكانة والتبعية والصمت ولهذا جاءت الشخصيات تحمل علامات ودلائل مغايرة لتشكِّل في النهاية لوحة فنية تعكس قضية المرأة .

2-1-1-رفيف :

تمنح الكاتبة بطلتها "رفيف" السلطة الكاملة في الرواية ،فتعطيها أولوية الظهور في الصفحة الأولى حين تقول : "ورآها من بعيد ، بمعطفها الواقي من المطر ، شال صوفي طويل يطير خلف ظهرها ويدها تحمل كتبا " [11] ، فالكاتبة هنا تهمل الوصف الخارجي والتفاصيل الجسدية المثيرة ، و تقتصر على وصف عامّ يوحي بشخصية متعلمة مثقفة وهي مثال المرأة المتحررة التي مكّنها تعليمها العالي من الاطلاع على مختلف الكتب والآراء والنظريات وما جاء فيها من أفكار عن حرية الفرد وحقوقه وواجباته فآمنت بذلك وسعت إلى تطبيقه في حياتها الخاصة ومن ذلك إيمانها الكامل بفلسفة الحب التي يرفضها المجتمع , وتجدها حقا لها وتحاول أن تنقل وجهة نظرها تلك للطرف الآخر والأكثر من ذلك تفرضها ، مبينة حريتها الكاملة في قراراتها تقول لعادل : " سيري معك لا يمنحك الحق في فرض القيود عليَّ...أسير معك كند لا كتابع " [12] ،حيث تريد إقامة علاقة متساوية مع الرجل مبيّنة أنها قادرة على ذلك رغم ما يختلجها من أفكار نسويّة متجدرة في اللاّوعي الأنثوّي والتي تظهر ضعف المرأة وحاجتها للآخر لأن " المرأة في صورتها الذهنية الراسخة كائن اندماجي وليست كائنا مستقلا .إنها وسط الآخرين وفيهم وبينهم ومنهم وبهم "[13] .

وهذا ما يدفع رفيف لتكون إلى جانب عادل الكرمي ويظهر واضحا من خلال هذا المقطع " و نظرت إليه من خلال الظلمة وعيناها تتضحان وأنفاسها تنقطع وأنَّت أخاف أن أظل وحيدة أنا بحاجة إليه إلى حبه ، وهو لا يعرف كيف يحب .وأحست بالثورة والمرارة فهي تعطيه أكثر مما يعطيها "[14] ،حيث تظهر الكاتبة رؤية الآخر إلى المرأة التي لا تتعدى الدلالة الشبقية و البطلة رفيف ترفض أن تتبنى علاقة سطحية فعندها " العلاقة يجب أن تكون عميقة ، كل شيء يجب أن يقرب الإنسان من قلب الدنيا ، من موطن الدفء من رحم الحياة ، وهناك تكمن الحرية ، لكن الحرية بحاجة للأقوياء والأصحاء ، والرجل العربي ما زال مريضا منفصما منقسما يرغب في شيء و يطبق آخر "[15] ، إنها ترغب في بناء علاقة متكافئة الهدف من ورائها الاستقرار لينهضا سوّيا بأعباء الأسرة وحين يتحقق ذلك تنطلق الى القضايا الأكثر أهمية وهي تحرير الوطن لأن البطلة مؤمنة تماما أن الوطن لن يتحرر ما دام نصفه يرزح تحت الظلم والعبودية .

وفي صورة أخرى ظهرت كشخصية متمردة من خلا ل هذا الوصف :" صاحت وهي تدور حول نفسها: دوري يا دنيا دوري ورفعت وجهها للسماء وهي تطلق عواءات حيوانية "[16] ، وكذلك في مقطع أخر: "وارتطمت بالأرض وتدحرجت على العشب كقطة برية "[17] ، فهذا الوصف المعبر عن تصرفاتها يوحي بشخصية متحررة من القيود وهذا ما أبدته في اللقاء الأول مع الطرف الآخر (عادل) حينما صاحت بصوت مسموع شد إليها انتباه المارة وهي تريد تخطي الإشارة الضوئية بعدما نهرها مرافقها "أقطع الشارع متى أريد ، أنا حرة ...لا أنتظر ضوءا منهم أصنع ضوئي بنفسي "[18] ، حيث تمتلكها نشوة التحدي والتمرد على القوانين وأعراف المجتمع إلى حد التضحية بنفسها لإيمانها الكبير بقضيتها ، دون أن تنتظر إشارة الانطلاق من أحد فإيمانها الكبير بقدراتها التي لا تقل أهمية عن الآخر تمكنها من تخطي كل الحواجز والممنوعات وإن فشلت في تحقيق هدفها تكون مثالا لبنات جنسها مثل ما جاء في الحوار:

- ستدوسك العجلات يوما "[19]
- أكون قد قطعت الشارع
- ستدوسك وسط الشارع ولن تصلي باب العمود
- أكون قد أعطيت المشاة مثالا .

إن إيمان الكاتبة بجوهر الحرية ؛أي حرية المرأة له بعدا مغايرا يتجاوز المفهوم الخاص لهذه الحرية ، إذ ترى أن حرية المرأة هي حرية الوطن ، وما دامت هذه الأخيرة ترزح تحت قيود و مفاهيم اجتماعية وأخلاقية وفكرية خاطئة وما تفرضه من ضوابط على المرأة يعيق تقدمها ،فإن الوطن لن يخطو خطوة نحو التحرر ، لأن المرأة نصف البلد. على حد تعبيرها كما منحت الشخصية زمام تغيير حياتها الخاصة ودللت لها سبل ذلك .

ف"رفيف" تؤمن بدورها في التغيير ولذلك لم تكتف بزاوية في المجلة مؤطرة "بصفحتين لنشر أقوال من هذا الكتاب أو ذاك إضافة إلى وصفات التطريز والطبخ ...لا تزيد حسب رؤيتها عن رشوة تقدم للمرأة بهدف تدعيم سلطة الرجل " [20] ، وسعت جاهدة رغم صعوبات العمل الصحفي للمطالبة بتخصيص نصف المجلة لتزيد من حظوظها في المساواة على المستوى الشكلي و العملي, ثم بعد ذلك على مستوى المضمون حيث تكون هذه المجلة منبرا حضاريا تسعى من خلاله إلى رفع المستوى الفكري للمرأة والذي بالضرورة يحسن من وعيها الوطني والثوري

لقد بينت الروائية من خلال هذه البطلة أن العمل للمرأة يحسن من مستواها المادي والفكري زيادة على مردوده الإيجابي على مستوى الشخصية حيث بلوّر ذلك تجربتها وزادها نضجا فتغيرت مع الوقت نظرتها للحياة وللقضايا ككل وهدأت ثورتها وأصبحت تؤسس لأمكنة داخل الإطار العام حتى تكتسب ثقة المجتمع فيمنحها السلطة الكاملة حين يشهد لها بامتيازها وتفوقها و مع تزايد الأحداث تتغير هذه الشخصية بطريقة إيجابية من فتاة متمردة إلى امرأة ناضجة خدمتها التجربة الصحفية ووضعتها على المحك وهذا ما نلمسه في تصرفها لمّا دعاها "عادل " لتجاوز الحاجز الأمني لكونهم يسمحون بالعبور للنساء فقالت : " ما فائدة أن أتخطاه وحدي "[21] لأنها تعرف جيدا أن القضايا المصيرية يؤسس لها بتفكير واع بعيد عن النظرة الأحادية .

لقد قدمت لنا الكاتبة البطلة "رفيف" في صورة المرأة المتمردة على التقاليد لتعكس ذلك في الواقع انتقاما لملايين النساء المخدوعات بالسلطة الذكورية والانتصار للذات ولغيرها من النساء، فكانت نموذج المرأة المناضلة التي تحمل قضية المرأة والوطن من خلال إصرارها على تطوير تجربتها الأدبية والصحفية والتحرر من كل القيود العاطفية التي تحد من انطلاقها حيث تسعى المرأة إلى مرحلة جديدة في حياتها تملك فيها حريتها بوعي وثقافة يمكنانها من رفض سلطة الرجل ومعه الموروث التقليدي المتجذر في ذهنية المجتمع , وفي هذا نجد الكاتبة كما يرى النقاد قد قدمت هذه الشخصية بمعزل عن مجتمعها ، فهي تعيش في مجتمع محافظ ، ومع ذلك تقدمها في تحرر تام ؛ إذ تسهر إلى وقت متأخر وتسافر وتترك العمل متى شاءت ، وهذا أمر شاذ في المجتمع الفلسطيني المحافظ .

2.1.2 سعدية :

وهي شخصية مركزية ومحورية ، منحتها الكاتبة مساحة كبيرة للتنقل في المتن الروائي فهي حاضرة باستمرار ، فتصوِّر أتعابها وأحلامها ، وقوتها وضعفها وحياتها اليومية ، بداية من قرارها الأول في الخروج للعمل بعد موت زوجها ، حيث تخوض التجربة لتعُول أسرتها ، فهذه الخطوة جريئة من امرأة تقليدية تنتقل من عالم الحريم حيث كانت " تضع على شفتيها حمرة فاقعة كالشقيق وتلبس شبشبا عالي الكعب وفستانا أبدا مزهر ، كانت أعباؤها آنذاك محصورة في أعمال البيت وتربية الأطفال والقلق على زهدي من البطالة ومن اليهود ؛ حين استشهد زهدي وجدت نفسها وحيدة من غير معيل ، فاضطرتها الظروف لتحدي الواقع الصعب وتحمُّل المسؤولية [22] ،هذا الحمل الذي جعلها تفكر في مخرج لمشكلتها دون الخروج عن النسق العام وما وضعه من ضوابط للمرأة الأرملة ولذلك سعت للخروج للعمل وتحسين مستواها المعيشي وفي هذا تَغيَّر تفكيرها ومظهرها فقد كانت تلبس تنورة سوداء وبلوزة بيضاء بأكمام طويلة في حين تغير مظهرها فيما بعد وكذا شكلها و "هزلت كثيرا واختفت النتوءات من جسمها واستبدلت بانحناءات انسيابية لطيفة ، واختفى الشعر الطويل ، وحلت بدلا منه قصة مستديرة أعطتها منظرا أكثر حيوية وشبابا "[23] .

فمظهرها الجديد يساعدها على العمل ويكسر نظرات الفضول ,وفي هذا لم تحفل الكاتبة بالمظهر الخارجي للشخصية كثيرا وإنما كان هدفها من ذلك الوصف تمرير رسالتها النسوية التي مفادها التأثير الإيجابي الذي يضفيه الاستقرار المادي والنفسي نتيجة عملها ، فتجلى في مظهرها و تصرفاتها و تفكيرها، حيث أصبح " في صوتها صلابة توحي بثقة كبيرة بالنفس ... فها هي امرأة قوية باستطاعتها أن تتحدى ظرفها وظروف البيئة " [24] .

فالأرملة تظل تحت المجهر والملاحظة الدائمة ، وهذا ما يضرها ويحد من قدرتها على التحرر والعطاء ، إذ تكون حذرة في تنقلها الذي يتطلبه عملها رغم إحساسها الكبير بكونها تشعر " أنها أصبحت رجلا أو نصف رجل "[25] وتدرك من خلال تواجدها في ساحة العمل " كم هي صعبة حياة الرجال وأصعب الصعب أن تحاول امرأة أن تعيش هذه الحياة ...فهناك المشاكل الأخرى وهي أمَرّ وأقسى ،امرأة شابة جميلة وأرملة "[26] ، لكن ما تملكه من إرادة حوّل الضعف والاستكانة إلى قوة في وسط ذكوري يستبعد إلى خارج حدوده العناصر الضعيفة .

إن إيمان "سعدية" برسالتها جعلها تنجح في إقامة مشغل للخياطة داخل بيتها ، لتحقق لأسرتها ما لم يستطع زوجها تحقيقه في حياته ، لتكسر بذلك الروائية النظرة الدونية للمرأة في عجزها عن خوض معترك الحياة وممارسة عملها الشاق والسفر من نابلس إلى تل أبيب والذي يعد من الممنوعات لكنها كسرت هذه القاعدة وسعت إلى هدفها دون تراجع .

لقد أدركت المرأة . سعدية . هويتها وحققت ذاتها بعدما كانت نظرتها لا تتعدى كونها تحصر أفكارها في بيتها وأولادها و عزلتها نتيجة ظلم المجتمع لها لأنها أرملة دفعتها ظروفها الخاصة إلى العمل في وسط رجالي فاتهمت في

شرفها ومع ذلك ظلت تجابه على مختلف الأصعدة وتحولت من امرأة ضعيفة مستكينة تصرخ داخل السجن "منشان الله"[27] ، إلى امرأة متمردة عندما هجمت على الجندي وضربته بكل ما في قلبها من حقد , فقد أدركت البطلة أن الحرية قضية جماعية واختيار إرادي فـ " الحرية مفهوم لا يمكن تجزئته واختزاله ، فحرية الوطن الفلسطيني لا تأتي من الخارج بل تنطلق من الداخل "[28]وهذا ما لمسته عند التفاف النسوة حولها عند مصادرة أرضها فمن تكاثف كل القوى وتجاوز الاختلافات والضغائن ينصهر الفرد داخل الجماعة ويقدم كل ما لديه ، وبخاصة المرأة المعطاءة بطبعها والتي تدفع بالزوج ولابن ،فهي سخية وخصبة وهو غاية تسعى إليها النسويات حيث يجدن في المرأة معادلا موضوعيا للحياة .

تعطي الروائية نموذج المرأة القوية التي تحدت كل الصعاب وأثبتت وجودها من خلال عملها الذي غير حياتها وتفكيرها ونظرة المجتمع إليها ، من خلال تفكيك النظرة السلبية وإعادة تصحيح المفاهيم والدفع بالمرأة إلى معترك الحياة ومجابهة الصعاب .

3.1.2خضرة.

"خضرة" من الشخصيات النسائية المهمة في الرواية ، والتي كانت وسيلة الكاتبة لتعرية المجتمع ، وكشف تناقضاته ،وعيوبه ، والتدهور العام على كل الأصعدة وتشير من خلال هذه الشخصية الاستثنائية إلى التدني الأخلاقي في المجتمع وتغير المفاهيم فتصفها وهي في المقهى " خديها المتوهجين المشدودين عن ضحكة بغمازات ، وبُرقة أسنان قوية وحاجب خط قلم وكحلة ، أحد من السيف ثم لبان يروح ذات اليمين وذات الشمال "[(29)] ، فهذا الوصف يعطي بعض التصور عن هذه المرأة المومس ثم تبدأ تفاصيل الصورة تتضح مع تقدم السرد وخاصة الحوار مع الذات عبر الاسترجاع أو مع الشخصيات المتفاعلة معها الذي يكشف عن امرأة لا تِؤمن بالله ولا تراعي العرف والعادات .وهذا ما يبينه هذا المقطع :

- والله ها القعدة بتسوي الدنيا وما فيها [30]
- والله لو أنوي بقيم قيامة تل أبيب
- وكبف يعني
- يعني أقيم قيامتها
- طب تفضلي قيمها بعرضك

- هو فين العرض؟

وفي عبارة أخرى تقول "خضرة ": " والله أنا ما بخـاف ولا من الله ولا من اليهود "[31] ، فهذا الحوار يكشف عـن شخصـية مسـتهترة بالمبـادئ والأخـلاق فهي في سـعيها تبحـث عـن حريـة زائفـة لأن فـي "ظـل غيـاب الـوعي الاجتمـاعي حيث تبدو الحرية العبودية ، أو حريـة الاستلاب في تمردها ، حريـة بلا هـدف بلا نتيجـة "[32] .فهي تبحث عن حرية ذاتية وهذا مغاير لتفكير المجتمع الفلسطيني المحافظ لكن, في مقاطع أخرى نقف على ما تعانيه المرأة عبر العصور وما تعانيه أكثر من السلطة الذكورية من شتى أنواع القهر والعنف ، تقول "خضرة :"هربت من الأول الله يقطعه، كانت أيده والهواية يضربني ضرب ما تتحمله العفاريت "[33] وتقول كذلك "على الطالع يضرب وعلى النازل يضرب ، متجوز وعنده مرة وأولاد أكبر مني "[34]، وتحول مع الوقت هذا التعنيف إلى هروب دائم من رجل إلى آخر إلى أن تصل إلى حالة من اليأس في قولها : " قلت أقعد في بيت رجال يكفيني ويريحني من الخدمة في بيوت الناس والسرقة... طلع مريض وحالته حاله ، وبدل ما يطعمني صرت أطعمه ... وأسقيه وأشتري له دواء "[35]

فهذه مفارقة في المفاهيم ،حين تصبح هذه المرأة المومس عنوانا للعطاء والفضيلة ومن هذه الرؤية تحاول الكاتبة أن تتعاطف مع الشخصية لإيمانها بقضايا المرأة حيث تمنح هذه الشخصية كل الأعذار وتخرجها من دائرة الاتهام وتبين أن هذا الانحراف لم يكن اختياريا بقدر ما كان إجباريا وهذه الممارسات خلفها حاجة إنسانية ، وتضع بذلك المسؤولية على المجتمع الذي دفع بها إلى هذا الانحلال وهذا حين تكشف عن الجانب الإيجابي في الشخصية وأنها تمتلك شعورا إنسانيا , و حسا وطنيا يظهر في هذا المقـطع " روحي فداكم يا رجال والله ينصركم "[36] .فرغم سلبية هذه المرأة إلا أنها تبقى محمية تحت مظلة النظرية النسوية التي تدافع عن حقوق النساء.

1.2 .4 نوار الكرمي :

تظهر شخصية "نوار" من خلال ملمح أو اثنين تجسيدا للمرأة المثقفة المتعلمة التي تملك نوعا من الحرية بفضل انتمائها الطبقي ، حيث مكنها هذا التحرر من مواجهة السلطة الأبوية برفضها للزوج الذي أختاره الأب لإيمانها بقيمة المشاعر التي تكنها لـ"صالح الصفدي "السجين وقد كانت تستمد قوتها ونضالها من هذا الحب الذي دام سبع سنوات أعطاها صلابة وثباتا .

فانتماء "نوار" إلى طبقة غنية منحها قليلا من الحرية الذي تفتقده عينات نسويّة في ظروف مخالفة حيث مكّنها ذلك من الصمود والإدلاء برأيها بصراحة في قصة حبها وكذلك رفضها للزواج , لكن مع الوقت فترت هذه الشعلة المتقدة بل أصبحت عبئا يثقل كاهلها ، حينما اختلت لديها الموازين ورضخت لسلطة مجتمع ينظر إليها من زاوية " البنت تكبر في العشرينات "[37].

لتبين من خلالها الكاتبة حالة المرأة النفسية وما تلاقيه لتدفعها الظروف وغريزتها الأنثوية للبحث عن الأمان والاستقرار، لأن العواطف لن تكون لها زادا ولا حضنا تحتمي به ، فهي بحاجة إلى " الاستقرار الذي يتناسب ومفاهيمها التي تركض وراء الحلول السريعة " [38]، وأمام قساوة هذا الواقع وتناقضاته وفي لحظة ضعف تطفو رواسب السنين وتصعد صراخا عاليا " ما عدت أحتمل هذا الجوّ أريد الهرب ... وعد قطعته على نفسي أن انتظر كان للانتظار معنى ، وكان صالح أمنية ، أصبح الانتظار سجنا ...وبت أحلم بالهرب "[39].

فقد أبدت الكاتبة تعاطفا في البداية مع الشخصية الواقعة تحت ضغوط المجتمع ولكن سرعان ما تمردت عليها لأنها تمثل الطبقية التي ترفضها النسويّة ودفعت بالشخصية في النهاية إلى التنازل عن مبادئها في تحمل مواقف بطولية كونها امرأة من طبقة غنية تبحث عن الاستقرار لتمارس أنوثتها وتعود إلى المجتمع الحريمي ، وتنزع عنها قداسة "بنلوب" وذلك حين ترفض انتظار السجين ، فهي ابنة الكرمي الإقطاعي الوجيه ، المرهفة التي عاشت حياة العز وتختلف في وضعها هذا عن نساء المجتمع الفلسطيني اللواتي "لفظتهن قيعان المدن فقر وشظف ووجوه صفراء كئيبة "[40] .

تنتقد الكاتبة الشخصية ومن خلالها تعرّي المجتمع الطبقي الذي همش المرأة ، وترى أن القضايا الكبرى تحملها نساء قادرات على الألم والمقاومة دون انتظار المقابل ، فالمرأة تظل تجابه بما تؤمن به ولا تستسلم للظروف .

5.1.2 أم تحسين:

شخصية ثانوية ، تمثل المرأة التقليدية من عمق الحارة الشعبية ، جاهلة ، مسحوقة ظروفها البائسة انعكست على تفكيرها فانحصر عالمها في القيل والقال ومد لسانها السليط كشفت عنها الكاتبة من خلال بعض تصرفاتها التي تدُل على مستواها ومكانتها الاجتماعية واصفة حركاتها "لوت شفتيها وغربت عينيها "[41] ، كناية عن حركة دونية تنم عن تفكير ساذج كما ألقت الضوء على هذه الشخصية لتكشف عن كلامها السوقي عندما تدخل في عراك مع "سعدية " ، " أنا أخزي الشيطان يا مخزية يا دايرة يا أم الليرات الحرام " [42] ، فهي نموذج استثنائي سلبي أضاءت الكاتبة سراديبه لتعطي مثالا عن المرأة السلبية المستسلمة لظروفها التي تفتقد عزيمة تغيير واقعها الكئيب .

كشفت الروائية من خلال الشخصيات النسوية اللواتي أخذن زمان الحكي والسرد عن التاريخ الدرامي الذي عاشته المرأة من خلال الممارسات القمعية لها من طرف السلطة البطريكية ، وسعت إلى كسر هذه الأخيرة حين دفعت بالمرأة إلى مركز المتن ضمن استراتيجية نسويّة ترى أن المرأة مركز الكون ، في حين يأخذ الرجل الهامش ، مجسدا الأدوار الثانوية .

2.2 الشخصيات الثانوية (الذكورية):

ظهرت الشخصيات الذكورية في صور ثانوية و"غالبا ما تكون غير نامية تسير وفق مستوى واحد فهي إما عوامل كشف عن الشخصية المركزية وتعديل سلوكها وإما تتبع لها ،تدور في فلكها ، وتنطق باسمها فوق أنها تلقي الضوء عليها وتكشف عن أبعادها "[43]وهذه النماذج تمثلت بكل تمظهراتها في هذه الرواية .

1.2.2عادل الكرمي :

يعمل "عادل الكرمي" محررا لزاوية العمال في مجلة البلد ، وهو من عائلة إقطاعية يرتبط بعلاقة عاطفية مع "رفيف " ، و ظهرت هذه الشخصية ملازمة لرفيف " ، حيث تكشف الروائية مواقف "عادل " السلبية حين تقول : " ضبطته ، فهو ككل المثقفين متناقض متذبذب ...يطبقون على العام ما لا يطبقونه على الخاص"[44] ، فموقفه يكشف عن ازدواجية التفكير لدى المثقف العربي الذي يؤمن بنظريات غربية لكنه يعجز عن تطبيقها في حياته وممارساته لضعف في شخصيته وعجزه التام في فهم واقع المرأة وطبيعة تكوينها النفسي والعاطفي حيث يسعى من خلال تعاطفه معها إلى اقامة علاقة خارج الإطار الاجتماعي ، وليس من مبدأ الايمان المطلق بحقوق المرأة , فهو يؤمن بشيء ويسعى إلى تطبيق شئ آخر ، ففي الوقت الذي يدعوها للحرية والتحرر انطلاقا من أفكاره التقدمية ،يكبلها بما ترسب في نفسه من موروث تقليدي " يريدها أن تعي ولا تعي ، أن ترى ولا ترى ، أن تتكلم ولا تتكلم "[45] فهو في هذا يقع هو الآخر بضعفه تحت جبروت السلطة الاجتماعية ويصبح " "مجرد رجل مشوه ، مقموع ، ... مهشم هشمته الدنيا بلدته التجارب بدون عواطف !"[46]. فهذه المواقف المتناقضة جعلت من "رفيف" تتخلى عن العاطفة التي تربطها به لأنها تكبلها أكثر مما تدفعها نحو النجاح , وبخاصة حين كشفت علاقاته العاطفية المتعددة زيادة على تناقض أفكاره والأكثر من ذلك حينما اكتشفت علاقته المشبوهة بـ"خضرون " الإسرائيلي.

2 .2.2شحادة :

جاء حضوره في الرواية ثانويا ، ومقترنا بالبطلة سعدية تماما ،تصفه الروائية في أول ظهور له بوصف استثنائي:" حنى قامته حتى كاد رأسه أن يلمس كفها ، وقمز وهو يتراجع للخلف "[47] ، فهو وصف لرجل يقدم الولاء الكلي والطاعة على طبق الحب لامرأة لا تعيره أي اهتمام زيادة على كونه مجرد وسيلة أو أداة تستند إليها لقضاء حوائجها بطريقة عملية بعيدا عن العواطف و دون تجاوز الحدود, فحينما خاطبها باسمها ردت بحزم ورفض: " من إمتى تناديني سعدية حاف ... تماديت ونسيت حدك " [48].

تكشف الروائية عن مشارعه المشبوهة وتعري هذه الشخصية من الداخل وتفضح طباعها وإحساسها الدائم بالغربة , زيادة على إحساسه بالنقص وهذا ما يدفعه لنسج الأقاصيص والحكايات الغريبة ليكون في دائرة الضوء مع "سعدية" التي تأملته و " هو يتكلم...و يؤشر ويشبر و يتفتف ويتذلل "[49] ، فهو في نظرها "سخل أعجف لا يبلعه زور ولا تهضمه معدة "[50] ، حيث تنظر إليه "سعدية " نظرة دونية, لتصبح هذه العاطفة دليل إدانة له وتبين ضعفه منتصرة في ذلك للمرأة التي وصفت عبر عهود بضعف عاطفتها إتجاه الرجل ومن خلا ل ذلك يتم تبادل الأدوار بين الجنسين ،وتقتص لتاريخ طويل من الدونية المفروضة.

3.2.2 خضرون :

"خضرون " ، شخصية مغايرة تماما ، ظهر كعنصر يهودي في السرد الروائي كإسقاط مباشر عن البيئة اليهودية الموجودة في الوطن الفلسطيني، زجت به الكاتبة لأجل إضاءة أفكار"رفيف" حيث تظهر شخصية "خضرون" من خلال أفكاره التقدمية على لسان "أبو العز" الذي التقى به في السجن , ليظهر بعد ذلك برفقة "عادل الكرمي " وهذا ما أثار حافظة رفيف من خلال مناجاتها : "لو أنك تعرف يا خضرون ، لو أنك تعرف ،ماذا يقولون لك هنا ؟مساواة الشعوب ومساواة الأجناس ومساواة المرأة ؟ وصلوك يا خضرون قبل أن يصلوني، آمنوا بك قبل الإيمان بي يحاولون الوصول إلى شارعك قبل الوصول إلى دهاليزي ، ويقولون لك الشعب وأنا نصفه فهل قالوا لك عن النصف المعتم ؟"[51]

حيث تنظر بعدائية لـ"عادل" الذي فتح بابا للحوار مع الآخر ولم يفتح بابا للحوار مع المرأة وهي نصف المجتمع وحرية المجتمع تقاس بمدى تحرر نسائه ، وتطرح الروائية على لسان البطلة كيف يمكن لهذا الرجل أن يفاوض الآخر (الإسرائيلي) في حين لا يحاور المرأة التي هي نصف المجتمع وإليها أُوكلت مهمة تربية أجيال بكاملها لمقاومة الاستعباد والعنصرية ، وأن الهمّ الداخلي يتعاون على حلّه المرأةُ والرجل ، وإن مفهوم الحرية ينبع من الذات وهذه الحرية لن تكون إلا إذا نالت المرأة كل حقوقها وحينما تتخلص من الإحساس بالتهميش والدونية ينعكس ذلك مباشرة على المجتمع .

4.2.2 باسل:

"باسل" (أبو العز)، يظهر أولا في السجن الذي يقضى فيه سبع سنوات ، حيث دخله طفلا صغيرا ، وهو شخصية مرحة ,مدجج بالشقاوة والتمرد ، الأمر الذي عجّل بدخوله إلى السجن ، أين يهتم بإطلاق النكت وكذلك بعد خروجه وعودته إلى أهله مُظهرا ذكاء ملحوظا من. خلال ألغازه الغريبة التي تجعل الجميع يضحك بقوة ، يحب قراءة الكتب كثيرا في السجن ، نمت شخصيته وكون نفسه وظهر دوره الملفت عندما طلب منه أخوه بيع المزرعة

لسد ديون الجريدة ، ولما وصلها ووجد ما آلَ إليه أمرها تعامل بحكمة مع الفلاحين ولم يبعها ، يظهر تعاطفه مع المرأة و تأييده الكبير لـ"رفيف" في مواقفها ، ويقول لها دائما : "أنا معك " ، كما وقف بنبل مع "سعدية كما جاء في هذا المقطع " وجلس على التراب قريبا من قدميها وقد ملأه الإحساس بالذنب . هذه هي سعدية وهذا همٌ آخر، تلقي وعدك يا أبو العز. أية جريمة اقترفناها يا شعوب الأرض و يا غضب التاريخ !" [52] ، ثم قال مواسيا : "الصبر يا سعدية صبرك وإيمانك يا سعدية"[(53)].

يلتقي "باسل" في محطته النهائية بـ"خضرون" الإسرائيلي التقدمي الذي يساند قضيتهم ليبرم معه اتفاق ترجمة المجلة إلى العبرية، لكن في هذا الوقت تشتعل نيران الانتفاضة فيتركه ويلتحق بالانتفاضة.في إشارة من الكاتبة أن لا حوار مع الآخر، وأن الحل الوحيد هو الثورة وفي هذا أظهرت ايجابية هذه الشخصية .

ودون كل الشخصيات الرجالية تعاطفت الروائية مع هذه الشخصية حين تتبعت مساره الطفولي إلى أن أصبح شابا ، ثم دخوله السجن دليل نضاله الفعلي فهو لا يؤمن إلا بالمقاومة حلا للقضية "وهي صور الوطنيين من جيل الشباب الصاعد الذي يعمل بإخلاص ...وأي محب صادقا في حبه لوطنه من هذا النوع الذكوري المجسد لابن المرأة أو حبيـــبها أو غير المتورط كثيرا في اضطهاد نصف المجتمع ...ومتعاطفا مع المرأة " [(54)] .

لقد جاءت الشخصيات الرجالية في أدوار ثانوية مساعدة، زيادة على الوصف بالنقص والتذبذب و الانتهازية وهذا ما أجمعت عليه الدراسات النقدية في تنظيرها لصورة الرجل في السرد النسائي حيث سلبته المرأة بهذا الوصف هالته الذكورية وسحبته بعنف إلى الهامش وهذا ما أشار إليه الغذامي في قوله : " لكي يتهاووا رجلا تلو رجل "[55] إلى نهاية مأساوية لكي تقتص لنفسها من تاريخ طويل من الإقصاء والتهميش.

وفي هذا واجهت الروائية سحر خليفة العديد من الانتقادات لأنها نزعت عن الرجل الفلسطيني شجاعته ومقدرته على مجابهة المحتل , والتاريخ يشيد ببطولة الرجل الفلسطيني على مدى عهود من الزمن في حين تعطي كل الصلاحية للمرأة في أن تقود ثورة سعيا إلى إثبات الذات والتحرر من سلطة الآخر وهذا ما تجلى في المشهد الأخير حين اجتمعت الشخصيات النسائية في لوحة تعبر عن وجهة نظر نسوية ."بدأت سعدية تضرب والنسوة تضرب ، حجارة ، حصى ، تراب شظايا ، زجاج ، صراخ النسوة ، ضرب وحجارة و مقاليع "[56]، وهذا ما دعت اليه النظرية النسوية لالتفاف النساء واتحادهن حول القضايا الأساسية وتجاوز كل الخلافات لتحقيق النجاح ؛فعندما تتحد النسوة تتحقق القوة وتصبح الأحلام واقعا فعليا وهذا أقصى ما تصبو إليه "سحر خليفة" ،من خلا ل ما تمّ تجسيده في الشخصية الروائية.

3.خاتمة:

ولأن الشخصية هي القطب الذي تدور حوله رحى السرد وما لها من تأثير في بناء النص فقد أجمعت الدراسات على تناولها بالتحليل والنقد والوقوف على جمالياتها وما تقوم به من فعل وتحريك للأحداث وإضفاء صبغة على المكان بما يميزها من سمات وعلامات وحضور ، ولهذا وذاك ركزت الكِتابات النسوية على هذا العنصر الفعال محاوِلة بذلك خلق استثناء في السرد النسوّي وخصوصية تصنع به تميزا ، وذلك تعبيرا عن مضمرات في اللاوعي الأنثوي ، ومحاولة بذلك خلخلة الصورة السلبية النمطية للمرأة التي اتصفت بها في السرد الذكوري بالاقتصاص لزمن طويل من التهميش والاقصاء ، حيث جربت إعطاء صورة جديدة مغايرة تماما للصورة التي آلفها القارئ ، بل والأكثر من ذلك سعت إلى تهميش الشخصية الذكورية وتعطيل فاعليتها وهذا ما تجلى في الكتابات النسوية وخاصة كتابة سحر خليفة نموذج التطبيق .

الهوامش:

1 - زوزو نصيرة ، سيمياء الشخصية في رواية "حارسة الظلال " لواسيني الأعرج ، مجلة العلوم الإنسانية - العدد التاسع ، مارس,2006, ص 2

2 - حسين بحراوي ، بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن الشخصية) ، المركز لثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1990، ص 208.

3- عبد المالك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1998،ص76

4- حميد لحميداني ، بنية النص السردي من منظور النقد العربي ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط3 ، 2003 ، ص24.

5 - فيليب هامون ,سميولوجية شخصية روائية ,تر:سعيد بن كراد,دار الكلام ,الرباط, المغرب,1990,ص8.

6- فاطمة بنت فيصل العتيبي ، السرديات النسوية " دراسة تطبيقية في روايات رجاء عالم " ، ماجيستير في النقد الأدبي الحديث ، ، كلية الدراسات العليا ،جامعة الملك سعود 1430هـ ، ص 117.

7 - المرجع نفسه ، ص 123.

8- عبد الله الغذامي ، المرأة واللغة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 , 1996، ، ص 190.

- ياسين عبد القادر يوسف شاهين ، تجليات الأسطورة في رواية المرأة الفلسطينية في القرن الواحد والعشرين ، رسالة ماجيستير في اللغة العربية وآدابها ، كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية ،فلسطين ، 2015 ، ص 22.

10- حسن مناصرة ، المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت ، ط1 ،2002،ص46.

11 - سحر خليفة ، عباد الشمس ، دار الدليل ،ط3 ،1984 ،ص9.

12- الرواية ، ص11.

13 - عبد الله الغذامي، المرأة واللغة ، ص 131.

14- الرواية ، ص18.

15- الرواية ، ص 19.

16 - الرواية ، ص16

17 - الرواية ،ص16.

18 - الرواية ، ص10.

19- الرواية ، ص نفسها .

20 - الرواية ، ص 145.

21 - الرواية ، ص 251.

22-الرواية ,ص23

23 - الرواية ، ص 23.

24 - الرواية ، ص نفسها.

25 - الرواية ، ص 35.

26- الرواية ، ص 30.

27 - الرواية ، ص81..

28 - إمام القاضي ، الرواية النسوية في بلاد الشام ، دمشق ، الأهالي ، ط1 ، 199، ص 19.

29-الرواية ,ص72

30 - الرواية ، ص 70.

31- الرواية ، ص نفسها.

33 - وائل الصمادي، صورة المرأة في روايات سحر خليفة ، دروب للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن (د.ط) ، 2009 ، ص 95.

34 - الرواية ، ص 86.

35 - الرواية ، ص نفسها .

36 - الرواية ، ص96 .

37 - الرواية ، ص 96.

38 - الرواية ، ص 39.

39 - الرواية ، ص 115.

40- الرواية ، ص 39.

41 - الرواية ، ص نفسها .

42 - الرواية ، ص 22 .

43 - الرواية ، ص32

44 - الرواية ، 17

45- الرواية ، نفسها

46 - الرواية ، ص50.

47 - الرواية ، ص40.

48 - الرواية ، ص 26

49 - الرواية ، ص نفسها .

50 - الرواية ، ص30.

51 - الرواية ، ص نفسها .

52 - الرواية ، ص 120.

53 - الرواية ، ص230.

54-الرواية, ص232

55 - حسن مناصرة ، المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية ، ص 361.

56- عبد الغذامي ، المرأة واللغة ، ص 190.

57 - الرواية ، ص 278.